ISSN: 2090 – 0449 Online
Universal Impact Factor (UIF), 2015.
Impact Factor for Arabic Scientific Journals, 2016.

العلاقات المتبادلة بين شمال وغرب افريقيا
الجذور التاريخية

عبد الرحمن قدوري



باحث دكتوراه
قسم التاريخ والآثار
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

شهدت الضفتان الشمالية والجنوبية للصحراء الكبرى تواصلاً حضاريًا عبر عصور طويلة، شمل مجالات سياسية وتجارية وثقافية، ساهم بشكل كبير في نقل مختلف المؤثرات الفكرية والاجتماعية عبر الصحراء الكبرى، وتحاول الدراسة تقديم موجز للروابط التاريخية التي جمعت السكان والقبائل من شمال الصحراء مع نظرائهم من جنوبها، ساعين بالقدر الكافي درء الشبهات والرد على الافتراءات التي دأب الاستعمار على الترويج لها من قبيل أن العرب كانوا تجار رقيق يسعون إلى نهب ثروات إفريقيا وكانوا سببًا في تخلفها عبر قرون خلت، والتاريخ يثبت عكس ذلك فقد عرفت منطقة غرب إفريقيا أزهى عصورها في الفترة التي أعقبت انتشار الإسلام بالمنطقة، واستمر ذلك حتى مطلع القرن السادس عشر الميلادي حيث برزت الحملات البرتغالية الأولى على الساحل الغربي لإفريقيا، وكان ذلك أول اتصال مباشر مع الأوروبيين، واليوم تبرز أهمية إحياء الروابط التاريخية والثقافية بين المنطقتين في ظل واقع إقليمي ودولي يتجه نحو مزيد من التكتلات السياسية والاقتصادية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٧ يناير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٢٨ أبريل ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

تجارة القوافل، غرب إفريقيا، الصحراء الكبرى، بلدان المغرب، السودان الغربي

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الرحمن قدوري، "العلاقات المتبادلة بين شمال وغرب إفريقيا: الجذور التاريخية".- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٦. ص٥٤ – ٥٧.

مُقَدِّمَةٌ

إن العلاقات العربية الافريقية قديمة ترجع إلى أكثر من ألفي عام، شملت مجالات وميادين عديدة بشريًا، تجاريًا، وثقافيًا...، ولعل الصلة بين سكان شبه الجزيرة العربية وإفريقيا أقدم من ذلك بكثير فقد كانت إفريقيا والشرق العربي رقعة واحدة حتى انفلقت قشرة الأرض ففصل البحر الأحمر بينهما، هذا الأخير رغم وعورة مسالكه لم يقف حائلاً دون الاتصال البشري. كما أن قدرًا كبيرًا من ذلك الاتصال كان ميسورًا عن طريق مضيق باب المندب وشبه جزيرة سيناء، وكانت سواحل المحيط الهندي الافريقية والعربية تمثل نقاط تواصل مهمة بين المنطقتين، وفي المحيط الهندي استغلت السفن العربية الرياح الموسمية لتسهيل رحلاتها، بينما كانت الابل وسيلة التواصل البري عبر سيناء وحتي سواحل المحيط الأطلسي.

ماهية العلاقات العربية – الأفريقية؟

يُقصد بهذا الاصطلاح في الأدبيات السياسية العلاقة بين الدول العربية الأعضاء في الجامعة العربية بشقيها الإفريقي والأسيوي مع الدول الأعضاء في منظمة الوحدة الإفريقية، ومن بعدها الاتحاد الإفريقي، ومعنى ذلك أن الحديث لا ينصرف إلى العلاقة بين الدول العشر العربية ذات العضوية المزدوجة في المنظمتين، والدول الإفريقية؛ لأن ذلك يدخل في إطار العلاقات الإفريقية-الإفريقية التي تبحث في إطار المنظمة الإفريقية، بل إن الاستعمار كان حريصًا على تقسيم القارة السمراء بين دول

الشمال العربي من ناحية، والدول الإفريقية جنوب الصحراء من ناحية ثانية. لذا فإن هذا التقسيم يعمد إلى التمييز واثارة النعرات بين أبناء القارة الواحدة، وبالتالي فإن هذه العلاقات تشير إلى العلاقات بين الدول الإفريقية بشقيها الشمالي العربي والجنوبي الزنجي "مجازا" من ناحية، والدول العربية الآسيوية من ناحية ثانية.(١)

أثر انتشار الاسلام على العلاقات العربية الافريقية

أدى ظهور الاسلام في القرن السابع الميلادي إلى ازدياد وشائج الاتصال العربي الافريقي، فقد أمد الإسلام العرب بغطاء فكري وروحي ساعدهم على خلق وحدة وطنية وتحقيق نهضة علمية وثقافية، ومنذ البدء صار الإسلام الركيزة الأساسية للثقافة العربية الجديدة، كما أصبحت اللغة العربية لغة القرآن الكريم، وعاء الفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية(٢). وتحت راية الاسلام خرج العرب صوب الشرق والغرب والشمال، وتمكنوا في زمن وجيز من نشر نفوذ الاسلام في أجزاء كبيرة من القارة الافريقية(٣). وقد أدى التطور العظيم في حياة العرب إلى حدوث نقلة نوعية في تاريخ العلاقات العربية الإفريقية، فمع توطد دعائم التعامل التجاري والهجرات البشرية قام العرب بدور ايجابي في نشر العقيدة الاسلامية وبسط نفوذها السياسي في إفريقيا.(٤)

وكانت هجرة المسلمين للحبشة أول اتصال رسمي للإسلام بإفريقيا، وهناك وجد المسلمون الحماية والرعاية في كنف ملك الحبشة المسيحي، وبعد موجة الفتوحات الاسلامية للشمال الإفريقي توالت هجرة القبائل العربية وزاد حجمها، وفي تلك المنطقة تأصلت جذور الحضارة الاسلامية والثقافة العربية، وأصبح الشمال الإفريقي وسودان وادي النيل جزءًا لا يتجزأ من الأمة العربية. وقد أظهر العرب في هذه المنطقة، وهم مادة الإسلام، خصائص فريدة في التأثير على المجموعات التي خالطوها من مصريين وبربر ونوبيين وأعطى العرب هذه الشعوب دينهم ولغتهم وكثيرا من مظاهر ثقافتهم.(٥) ومع أن العرب ما جاؤوا أصلاً إلى إفريقيا كدعاة متفرغين للدعوة إلا أن نشرهم للثقافة العربية كان يلازمه نشر للعقيدة الاسلامية، وكان للتجار العرب والبدو دور رائد في بذر النواة الأولى لتعاليم الإسلام في المجتمعات الإفريقية.

ومن الشمال الإفريقي توغلت المؤثرات الاسلامية العربية عبر الصحراء إلى بلاد السودان حيث نشأت السلطنات السودانية الاسلامية التي جمعت في نظمها السياسية بين أنماط محلية ونظم إسلامية، وفيها تفاعلت الثقافة العربية الاسلامية مع المؤثرات الإفريقية، ونتيجة لهذه الجهود اتسعت رقعة الإسلام حتى شملت معظم الجز ء الشمالي من القارة كما غلبت على بعض الجيوب في السواحل الشرقية من الجزء الجنوبي، وكان لهؤلاء المسلمين دور بناء في تاريخ المنطقة وحضارتها، كما صاروا يشكلون مركز ثقل سياسي مهم فيها، وقد ظلوا على صلة وثيقة بالوطن العربي، في المشرق وشمال إفريقيا وذلك بفضل الصلات الدينية والثقافية والبعثات التعليمية والمبادلات التجارية قديمًا وحديثًا.

تجارة القوافل بين شمال وغرب افريقيا

من العوامل التي ساعدت على توجه العرب جنوبًا نحو السودان الغربي أنها كانت "أرض الذهب" فضلاً عن وجود منتجات البيئة الاستوائية وشبه الاستوائية من صمغ وريش النعام وبيض وجلود وعاج ورقيق..... كذلك فقد توفرت لمنطقة المغرب العربي شمال الصحراء موارد هامة قدمتها في مقابل منتجات السودان الغربي، لا سيما الملح، حيث لعب دورًا هامًا في تعميق الاتصال بين أهالي السودان والمغاربة، وعن طريق المغرب انتقلت تجارة السودان الغربي إلى أوروبا(٦). وقد شكلت مسالك القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى جسور تلاقح حضاري عميق الأثر بين الشعوب الافريقية شمال الصحراء وجنوبها، ونسجت بين هذين الجُزأين عرى اقتصادية واجتماعية وثقافية وثيقة على مر الزمن، ونشطت تيارات التبادل الحضاري عبر الصحراء بشكل لم يسبق له مثيل في الفترة الممتدة من القرن الثامن إلى القرن السادس عشر الميلادي، وتعددت المحاور التجارية وعرفت فترات ازدهار وانحطاط تبعًا للظروف الطبيعية والاقتصادية والسياسية والأمنية في المنطقة.(٧)

التفاعل الثقافي بين العرب وإفريقيا جنوب الصحراء

لقد ترتب على وصول المسلمين الأفارقة إلى السلطة ووجود عائلات مسلمة على رأس الدول الإفريقية، توطيد علاقات تلك العائلات بالدول الإسلامية في بقية العالم الإسلامي، وذلك عن طريق التجارة فكان يرد الكثير من التجار و العلماء من شمال إفريقيا، وكان الملوك يستجلبون لهم الكتب، وذاعت في السودان شهرة عدد من العلماء وكان لهم أثر بارز في إثراء الحياة الثقافية والفكرية وفي ربط غرب إفريقيا بشمالها. وكان للطلاب إقبال على العلم دفعهم للهجرة خارج بلادهم إلى الحجاز ومصر وبلاد المغرب، وقد زاد عدد طلاب بلاد السودان الغربي في مصر حتى أصبح لهم رواق في الأزهر باسمهم وهو "رواق التكرور"(٨) وقد نال العلماء في بلاد السودان مكانة مرموقة فهابهم السلاطين وعملوا على إرضائهم ويقول أحمد بابا التنبكتي عن الشيخ محمد بن عمر بن محمد اقيت:" لا يخاف في الله لومة لائم يهابه السلاطين في دورهم ويزورونه في داره ولا يقوم لهم ولا يلتفت إليهم يهادونه بالهدايا العظام". وتشهد قائمة المؤلفات التي خلفها علماء السودان بالعربية وباللغات الإفريقية وما بقي من آثار معمارية على درجة إسهام الممالك السودانية في الحضارة الإسلامية، وقد بلغ الازدهار الحضاري

أقصاه في بلاد السودان في مملكة صنغاي (٧٧٧-١٠٠٠هـ/١٣٧٥-١٥٩١م) ولكن بعض الأحداث الكبرى أثرت على حيوية التواصل الاقتصادي والتجاري عبر الصحراء الكبرى(٩).

الصراع العربي الأوروبي على منطقة غرب افريقيا

يرى بعض الباحثين أن حملة المنصور الذهبي وغزوه لصنغاي سنة ١٥٩١م، وما تبع ذلك من سقوط تلك السلطة كان سبب ما حل بتلك المنطقة من انهيار سياسي وتدهور اقتصادي وتخلف حضاري(١٠)، ولكن ما حدث كان أحد مظاهر التدهور العام الذي حلّ بحوض البحر الأبيض المتوسط منذ أول القرن السادس عشر نتيجة للانقلاب التجاري العظيم الذي نتج من سيطرة البرتغاليين على مصادر التجارة الشرقية، وانتقالها من الطريق البري عبر الوطن العربي إلى الطريق البحري عبر رأس الرجاء الصالح، وقبل التدخل البرتغالي كان جزء كبير من تلك التجارة يشق طريقه إلى مصر بواسطة التجار العرب ومنها إلى المدن الإيطالية(١١). وبسبب ذلك انتقل مركز الثقل الاقتصادي أو الرأسمالية التجارية من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى البرتغال أولاً ثم إلى باقي أقطار غربي أوروبا تدريجيًا. وامتدت آثار ذلك التحول إلى أواسط بلاد السودان وغربي إفريقيا حيث انتقل جزء كبير من تجارة تلك المنطقة تدريجيًا من مراكزه المنبثة على أطراف الصحراء إلى المناطق الساحلية، في الجنوب والجنوب الغربي، والتي يسيطر عليها الأوروبيون.

أدى التدخل البرتغالي إلى اندماج التجارة الإفريقية في الاقتصاد العالمي الذي تسيطر عليه أوروبا الغربية، واكتملت تلك السيطرة بوقوع أجزاء كبيرة من المناطق الساحلية في افريقيا والوطن العربي تحت السيطرة الاستعمارية حيث اندمجت المنطقتان في النظام الرأسمالي العالمي، ونتيجة لهذا التدخل الأوروبي انخفض مستوى العلاقات الاقتصادية عبر الصحراء بين العرب والأفارقة وإن لم تنته كليًا، وظل مستوى العلاقات الدينية والثقافية كما هو حتى مطلع القرن العشرين.(١٢)

تأثير الوجود العربي الاسلامي في غرب افريقيا

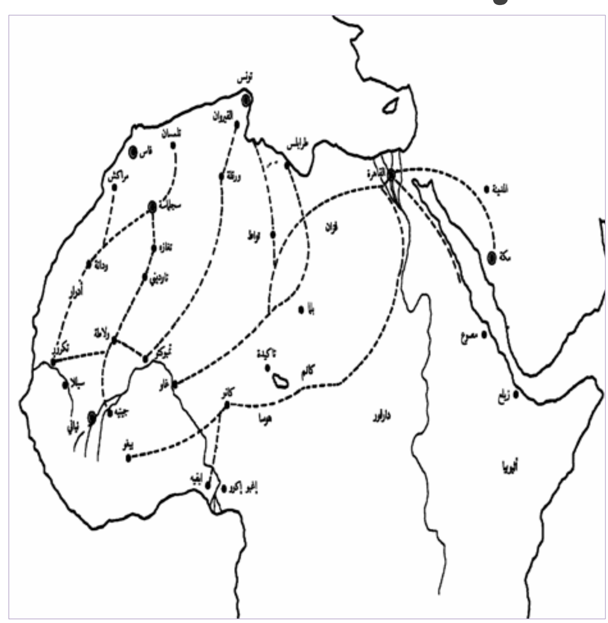
ترك الوجود العربي الاسلامي في بلاد السودان الغربي آثارًا عظيمة أهمها ظهور مراكز عدة للثقافة العربية الاسلامية، كما انتشرت اللغة العربية في هذه المناطق بفضل انتشار الإسلام فيها، وظهر عدد من الفقهاء وعلماء الدين وأئمة المساجد، درّسوا في المدارس القرآنية وفي الخلوات وفي الجوامع، ودرّست اللغة العربية في جميع مراحل التعليم، هذا فضلا عن انتقال فن العمارة الإسلامية، من فنون البناء والنحت والنقش على الأبنية، ولم يقتصر التأثير العربي الإسلامي في هذه النواحي، بل تعداه إلى شيوع التأثيرات الاجتماعية فانتقلت العادات والتقاليد والفنون الشعبية، ونظام الأسرة، وحتى الألبسة والأزياء.

وقد لخص "جرانفيل" وزير الدولة في أول حكومة وطنية في الكونغو العلاقات المتميزة بين العرب وإفريقيا ما وراء الصحراء بقوله:" لقد زوّر البلجيكيون كل شيء في الكونغو... فليست مدينة ستانلفيل سوى مدينة تيبوتيب(١٣) القديمة التي أقامها قبل وصول ستانلي، وليس العرب المسلمون –كما قالوا لنا- تجار رقيق، وإنما هم تلك الموجة الانسانية التي اختلطت بنا وصاهرتنا وتركوا لنا على أرضنا دماءهم والبلجيكيون يحصدونهم بالأسلحة الحديثة، وليس أعز علينا شيء سوى هذا الدم العربي الذي سال في الماضي كما سال ويسيل دمنا الآن على أرضنا....على أيدي نفس أعداء العرب في القرن الماضي....".(١٤)

خاتمة

عمومًا فإن مختلف التطورات والتفاعلات بين ضفتي الصحراء، قد ساهمت بشكل كبير في نقل مختلف المؤثرات الحضارية والثقافية والفكرية من الشمال إلى إفريقيا كلها وبشكل خاص في المنطقة الغربية منها، حيث اصطبغت بالطابع العربي الإسلامي، ويعتبر انتشار اللغة العربية في تلك الربوع، واتباع المذهب المالكي وقراءة القرآن على قراءة ورش عن نافع، وانتشار فنون العمارة الأندلسية الاسلامية خير دليل على ذلك. وفي ظل المستجدات الدولية وما يرتبط بها من دور متنام للتكتلات والتجمعات الاقتصادية, تبرز أهمية تدعيم التعاون العربي الأفريقي على المستوى الحضاري استغلالاً للمشتركات الحضارية والبشرية والتاريخية بين المجموعتين.

الملاحق



الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى
في القرن (الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي)

المصدر: نياني ج.ت، تاريخ إفريقيا العام، المجلد(٤)، اليونسكو، ١٩٨٨.

الهَوامِشُ:

(١) بدر حسن شافعي: "**تداعيات قمة الكويت على مسار العلاقات العربية الإفريقية**"، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٩٤، القاهرة اكتوبر ٢٠١٣.

(٢) مسعود علي، **تأثير الشمال الافريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي**، طرابلس: منشورات جمعية الدعوة الاسلامية، ٢٠٠٣. ص ٥٨.

(٣) محمد أحمد خلف الله وآخرون، **العرب والدائرة الافريقية**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥. ص٢٠-٢١

(٤) المرجع نفسه ص ٢٨

(٥) نفسه ص٢٩.

(٦) الهادي المبروك الدالي، **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء**، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩. ص ٢٩٤.

(٧) للمزيد انظر: ولد السعد محمد المختار، "**مسالك القوافل ودورها في التواصل الثقافي بين طرفي الصحراء خلال القرن ١٩م**"، طريق القوافل، منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الانسان والتاريخ، الجزائر ٢٠٠١، ص٩٩-١١٢.

(٨) سيد فليفل، "**الخلفية التاريخية للعلاقات العربية الافريقية عبر الصحراء الكبرى**" ندوة العلاقات العربية الافريقية، طرابلس: جمعية الدعوة الاسلامية العالمية، ١٩٩٩. ص٥٨.

(٩) يوسف فضل حسن وآخرون، **العرب وافريقيا**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ومنتدى الفكر العربي، ١٩٨٧. ص ٤١. جاسم ظاهر، **افريقيا ما وراء الصحراء من الاستعمار إلى الاستقلال**، القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ب ت ن، ص٦١.

(١٠) سيد فليفل، مرجع سابق، ص٦٦.

(١١) يوسف فضل حسن، مرجع سابق، ص٤٣.

(١٢) يوسف فضل حسن، مرجع سابق، ص٤١.

(١٣) أقام مدينة تيبوتيب محمد بن سيد المشهور بتيبوتيب، وهو حامد بن جمعة المرجيبي من أشهر التجار العرب الذين أسهموا في بسط النفوذ العربي في الكونغو، تمكن من السيطرة على المنطقة الواقعة جنوب بحيرة تنجانيقا ومروي، وفي عام ١٨٧٠م ضم اجزاء كبيرة من روافد نهر الكونغو وصار يتمتع بسلطات سياسية من فرض للضرائب وتعيين للحكام وحل للمشاكل بين الوطنيين، وتمكن من تأمين نفوذ سلطان زنجبار الاقتصادي على المنطقة بين ١٨٨٣-١٨٨٦، ولكن نفوذه المنفرد لم يدم طويلا اذ نازعه فيه البريطانيون والبلجيكيون، وباعتراف الدول الاستعمارية في مؤتمر برلين ١٨٨٥م، بدولة الكونغو الحرة طرد المرجيبي واستولى الملك البلجيكي ليوبولد على تجارته. انظر: يوسف فضل، مرجع سابق، ص٣٥.

(١٤) جاسم ظاهر، مرجع سابق، ص ٨٢.